نساء غزة.. أُقَبِّل جِبَهاكن.

يُلاك قلبي وكأنه في فم أسد جائع كلما شاهدت نسائنا في الحرب يجبرن على القيام بأعمال أو أفعال يعجز عنها أعتى الرجال في أماكن وبلدان أُخري.

من كان سيقتنع لو أن شخصا أخبره أن باستطاعة امرأة أن تحمل على رأسها كيس طحين يزن ٢٥ كلغم وتسير به مسافة ٧ كيلو أو يزيد!! كلما شاهدت هذا المنظر يقفز الأسد الهصور من عرينه ويبدأ بمضغ قلبي، متوجعاً أتأمل ما يظهر من وجهها الغارق في ثنايا شوال الطحين الذي ظفرت به بكل مشقة وانتزعته من براثن الموت المحقق.

في الحقيقة مهما أُتيت من مقدرة على الوصف فإن مشاعري قبل قلمي ستبقى عاجزة عن الإحاطة بكافة تفاصيل المشهد التراجيدي، حيث اختلاط كل الألوان وامتزاجها مع شتى ألوان الغضب والقهر والحزن والتعب.. رائحة التراب المجبول بالدم واللحم والخذلان.

للموت هنا طقوس لا يعرفها الا الذين عايشوها تحت كل أنواع القصف والدمار في مقتلة لم يعرف التاريخ لها مثيلا.
الموت هنا لا يعني توقف الجسد عن الحركة فقط، لكنه يأخذك لانتزاع الروح والأمل والإكراه على نمط حياة هي فوق احتمال طاقة البشر، فهذه الأم التي تصارع الحياة من أجل سلامة أبنائها، لا شيء يثنيها في هذا المعترك عن مواصلة السعي الحثيث من أجل التأكيد على إثبات ذاتها الحرة في مواجهة أعتى وأقسى المهمات، متحدية كافة الصعوبات التي فرضتها هذه الحرب اللعينة.

ومع كل هذا العذاب اليومي أمام متطلبات تبدأ ولا تنتهي، نجدها احيانا تصرخ، تنفجر حتى تتأكد إنها لازالت حية ولا زالت تستطيع أن تتألم وتتأمل وتحلم بالحياة. فتراها تحمل إبانها راكضة به على العيادة لتعالجه من الامراض المنتشرة بأنواع واشكال لم نعهدها بالسابق وطبعا آخر شيء ممكن ان تجده بالعيادة هو الدواء. تقريبا لا يوجد سوى اكامول ويعطى شريط واحد للحالات المستعصية. نعم جميعنا رجال ونساء واطفال وشيوخ ذقنا الامرين بهذه المقتلة، وهذا ما يدفعني للاعتقاد جازما ان للمرأة الغزية النصيب الأكبر من العذاب الذي لا يُحتمل، سواء بفقدانهن الزوج والابن والأخ والسند. الكثيرات منهن أضحين بلا معيل يستندن اليه، وبقين وحيدات يصارعن من أجل الحياة.

هذه هي الأم والأخت والابنة الفلسطينية، لو كان هناك جزء بسيط متبقٍ من الضمير الإنساني، فعلى العالم كله ان ينحني إجلالاً ويقبل رؤوسكن العاليات. آه يا قلبي الموجوع نشعر بالعجز والخذلان أمام صمودكن وشموخكن الكبير.

أنه العذاب والموت الذي يتكرر في كل لحظة، ولا يتوقف مثله في ذلك مثل صخرة "سيزيف" الذي كان كلما رفعها لأعلى قمة الجبل عادت وسقطت مرة ثانية منهياً عمره وهو على هذا المنوال، كلما رفعها عادت وسقطت ليعاود من جديد نحن نعيش نفس الحالة من الانتظار بتوقف الحرب، ومع كل أمل جديد وفي اللحظة الأخيرة تسقط الصخرة وتعاد الكرّة.

ما احتوته سطور هذه المادة لا شيء يذكر أمام الواقع الحقيقي الذي تعيشه نسائنا في ظرف الحرب، لأن الواقع عصي عن ان تحتويه الكلمات مهما بلغت قدرتها على الوصف.

شخصيا، كشاهد يحيا في عين العاصفة ويرى أحوال نصف المجتمع وما يعانينه من مشاق على مدار الوقت، لا يسعني سوى أن اطبع قبلة احترام وتقدير على جبين كل امرأة وقفت بكل شجاعة وتضحية بجانب الشق الإنساني من الحياة.. الحياة التي لا يمكن لها أن تكتمل دونكن.. أتمنى ان تنتهي الحرب غداً وتعود كل النساء الى حياة تشبه الحياة ويحاول الجميع أن يعوضهن ولو قليلا عمّا عانينه بهذه الحرب التي لا وصف لبشاعتها.

علي أبو ياسين
1/6/2025